الدكتور/ محمد ناصر حميد.. عميد أدب عصره..

كفيف تحول إلى عالم

في اليوم الواحد يولد الكثير من الأطفال وقليلون هم من يصلون إلى ما وصل إليه ذاك الطفل الأكمه محمد ناصر حميد رغم أن مشواره لم يكن مفروشاً بالورود إلا أنه حلق عالياً في سماء العلم تاركاً خلفه الأرض للمبصرين فنصب نفسه ملكاً على عرش اللغة ينثر جواهر علومها على الآلاف من طلبة العلم..

رجاء محمد عاطف

في العام 1958م كانت إحدى القرى الريفية بخولان على موعد مع الفخر بولادة الدكتور محمد ناصر حميد من أبوين ريفيين فلاحين ولما كان يختلف عن بقية أقرانه كونه ولداً أكمه كفيف البصر كانت عاطفة أبويه القوية عليه وحبهم الزائد له أموراً مسلمة لإحساسهم بأنه يختلف عن أقرانه ويحتاج إلى رعاية مضاعفة ولم يدركا حينها أن ولدهما كفيف البصر سوف يضيء بنور علمه عقول المبصرين،لم يكن أحد يدرك بأن هذا الطفل الكفيف ستتفجر بداخله براكين من العزيمة والإقدام تصل به إلى واجهة المجتمع ويصبح علماً من أعلام اللغة في مجتمعنا، فما كاد يبلغ سن الصبا حتى تجاوز تلك المرحلة وحلق بعيداً عن مشاعر الخوف ملتحقاً (بالكتاب) وهو في الخامسة من عمره، وكان والده -رحمه الله - يعتقد أن مهنته الأساسية أن يكون صوتاً مثل صوت الشيخ محمد حسين عامر- رحمه الله - ولكن هذه المكانة على الرغم من أهميتها وقيمتها الدينية والاجتماعية لم تكن موضع تفكيره وكان لابد من أجل أن يصل إلى هذه النقطة أن يكون أحد الطلاب الملتحقين بمدرسة الجامع الكبير بصنعاء، وعلى الرغم من معرفته بأهمية الجامع الكبير وقيمته العلمية إلا أن الصورة التي رسمت له عن الجامع في الريف جعلته يتحفظ كثيراً عن أن يلتحق به لأنها كانت صورة الكفيف الذي ينتظر ما في أيدي الناس من نقود ونفسه كانت تعز عليه أن يقبل ذلك.

ظل فترة طويلة هكذا حتى أتى اليوم الذي شكل علامة فارقة في حياته حيث نقل إليه راديو صنعاء عبر مذياعه لقاء أجراه المذيع الكبير الأستاذ عبدالرحمن المترب مع أول مدير لمركز النور لرعاية وتأهيل المكفوفين الأستاذ علي محمد الحمبصي رحمه الله ففرح كثيرا فتعجبت عن سبب فرحته حين تحدث وكأنه يعيش تلك اللحظة عندما قال لي باللحظات التي تخيلها ورسمها عندما سيلتحق بهذا المركز وقال والدموع تنهمر من عينيه كطفل بريء:لن تصدقي لماذا فرحت لأنني عندما سألتحق بمركز النور للمكفوفين سأدرس ثم أتوظف وسأتمكن من شراء جهاز راديو وهذا كل ما في الأمر، لأن الراديو كان بالنسبة لي مملكة حلم ولم أكن أحلم بأكثر من ذلك وكنت أتخيل أنني سأتخرج من مركز النور لرعاية وتأهيل المكفوفين وأتوظف براتب قدره 75 ريالاً وأشتري جهاز راديو (أبو كعكة) بـ34 ريالاً.

بقى موضوع الراديو حلماً يراوده في المنام ودوماً ما يحلم بأنه قد اشترى الراديو وذهب إلى أحد الخياطين وخاط له ثوباً جميلاً مزركشا على طريقة ما كان معروفاً في الريف آنذاك، وصار يضم الثوب إلى صدره ويحضنه بلهفة وشوق.

وأخيراً أتي اليوم الذي التحق بمركز النور لرعاية وتأهيل المكفوفين سنة 1969م وفي هذا المركز ترفع إلى السنة الرابعة تلقائياً منذ البداية ونفعه في ذلك ما قد حصله في الكُتاب، وخلال أسبوع ظل يومين في السنة الأولى ويومين في السنة الثانية و3 أيام في السنة الثالثة ثم انتقل إلى السنة الرابعة وانتهى الشهر حتى صار في السنة الخامسة والتي ظل، فيها سنة كاملة ثم حصل على الابتدائية سنة 1971م..

وتحت وطأة ظروف صعبة مر بها في مركز النور لرعاية وتأهيل المكفوفين حيث كانوا يقتاتون وجبة واحدة في اليوم إلا أنه استطاع بإرادة وعزيمة الواثق من نفسه مواصلة تعليمه بانسجام حتى حصل على مرتبة عالية في الشهادة الابتدائية، ولما كان لكل مجتهد نصيب فقد كافأته الدولة بمنحة إلى المملكة العربية السعودية ضمن التعاون الثقافي بين البلدين ولكن لم تأت المنحة إلا وهو في الصف الثالث الإعدادي فسافر وحصل على الثانوية العامة من هناك وبتقدير ممتاز ثم بعد ذلك عاد وكانت جامعة صنعاء قد مر على إنشائها حوالي ثمان سنوات ثم حصل على منحة لدراسة الإعلام في كلية الإعلام بجامعة القاهرة لكن لم يتحقق له ذلك والسبب أن زملاءه الذين ترشحوا معه للسفر عدلوا عن السفر ولم يبق إلا هو، وعادت قضية الخوف والتردد مجدداً إلى قلبه.

وعاد مجدداً إلى جامعة صنعاء وكان الالتحاق بقسم اللغة الانجليزية يعد قفزة هائلة ذات مدلول يتعلق بالسلم الاجتماعي آنذاك ومعنى ذلك أن الملتحق بهذا القسم ذو مكانة اجتماعية كبيرة أو من أسرة مثقفة وهو ابن فلاح لابد أن يثبت أنه مثل هؤلاء الذين يأتون من الخارج ليتعلموا اللغة الانجليزية ومثل أبناء وبنات السفراء الذين سيلتحقون بالقسم نفسه فسجل في قسم اللغة الانجليزية وظهرت نتيجة المقابلة وكان من ضمن 60 طالبا نجح منهم 13 طالبا كان الأول عليهم، لكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن... فكما يروي القصة الدكتور محمد ناصر حميد قائلاً: كان على الطالب أن يتابع إجراء ملف التحاقه بالجامعة حتى يسلمه إلى الأرشيف فحمل محمد ناصر الملف وسلمه لعميد كلية الآداب الدكتور مصطفى مندور أستاذ اللسانيات الكبير كي يوقعه وكان بجواره زميل له فقال لهما العميد باللهجة المصرية (إزيكم؟) كيف حالكم؟! رددت عليه: قل كيف حالكما. فقال لي (أنت ستلتحق بقسم اللغة العربية) وأنا ذهلت وقلت يا دكتور أنا الأول وقال أعلم و لكنك ستدخل قسم اللغة العربية، التحق بها الآن أفضل لك لأنك في السنة القادمة لو انتظرت فستأتي وأنا لا أزال العميد وعندها لن تلتحق إلا بقسم اللغة العربية فخذها مختصرة والتحق بالقسم من الآن.

وتابع: والتحقت بقسم اللغة العربية وحققت نتائج وكنت الأول على دفعتي في كل سنة وتخرجت من كلية الآداب الأول وبتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف..

وذكرني الأستاذ د /مصطفى مندور رحمه الله وأنا في السنة الثالثة مقولة «أتذكر يوم أن جئت لي وقلت كذا أنت كنت ستنجح في اللغة الانجليزية لكنك لن تنجح بالطريقة التي أنت عليها الآن في قسم اللغة العربية لأني من خلال الخبرة والتجربة عرفت أن اللغة تجري في دمك فمن يقول لعميد ويرد عليه والفارق بينهما فرق كبير بين طالب وأستاذ لا بين طالب وعميد ومع ذلك يرد عليه تلقائيا إلا إذا كانت اللغة تعشش بداخله ومن هذا المنطلق فضلت أن تلتحق بقسم اللغة العربية»..

بعدها تخرج وعين معيداً في قسم اللغة العربية وقبل ذلك التحق بإذاعة صنعاء موظفا وكان قد طلب أن يتعاقد مع الإذاعة تعاقداً وليس وظيفة لكن الأستاذ حسن اللوزي كان وزير الإعلام آنذاك حولها من تعاقد إلى وظيفة وقال بعد أن رأى تقديره عاليا وممتاز مع مرتبة الشرف: نحن نبحث عن هؤلاء ثم عرض عليه أن يترك الجامعة ويلتحق بالإعلام

● د.عبدالعزيز المقالح

"الدكتور المقالح: نشاطه ونقاشه يذكرني بما قرأته عن عميد الأدب العربي طه حسين

وسمينحه منحة إلى بريطانيا للدراسة لكن الدكتور حميد كان لا زال وسيظل متمسكا بالجامعة لأنها كانت همه وغرامه وعشقه وهيامه، وأنه منذ أن دخل أول ثانوي وهو يبني ويسير في غاية هدف واحد أن يكون أستاذا في الجامعة..

تعين في سنة 1984م معيداً في الكلية وثم بعد ذلك درس سنتين وبمنحة من الجامعة ذهب إلى مصر وفي جامعة الإسكندرية حصل على درجتي الماجستير والدكتوراه في اللسانيات ثم عاد أستاذا في جامعة صنعاء كما أنه عمل في الإذاعة متعاقداً لأنه لا يجوز الجمع بين وظيفتين..

وبعد ذلك عمل في مجال حقوق الأشخاص ذوي الإعاقة حتى كان أول رئيس للاتحاد الوطني لجمعية المعاقين اليمنيين، ومثل اليمن في المنظمة العربية للأشخاص ذوي الإعاقة منذ سنة 2001م حتى 2011م والآن هو أستاذ في الجامعة ويعمل في الإعلام وله برنامجان الأول في إذاعة صنعاء «لقاء الأسبوع» والثاني «جسر التواصل» إلى جانب عمله مشرفا لغويا بالإذاعة .. أيضاً برنامج في قناة باسم «من آزال مع التحية» ويعمل في البحث العلمي ويعد الآن باحثا في مجال اللسانيات وكما أنه مهتم كثير بمتابعة طلابه الذين يحاضرهم ويسعد بأنهم تخرجوا على يده ويلقاهم في كل مكان خاصة والبعض منهم قد صار من المثقفين الكبار والشعراء المتميزين يقول: (أسعد إنسان هو الأستاذ الذي يرى تلميذه قد صار أفضل منه).

ويرجع الفضل في نجاحه لوالديه على الرغم من أنهما كانا خائفين لكنهما في النهاية باستثناء والدته كانت متخوفة ولو صدق خوفها ما التحق بالدراسة،

● د.محمد ناصر حميد

ولكن والده صمم على أن يحقق غايته حين كان يبكي كثيرا إذا سمع شخصا يقول إنه سيسافر إلى صنعاء ويريد أن يتعلق بأهدابه حتى يسافر إلى صنعاء ليلتحق بمركز النور للمكفوفين. بعد ذلك حقق له والده غرضه وألحقه بالمركز وشجعه كثيرا رحمه الله..

وكما يجد أن الدافع الأكبر الذي اعتمد قوله على أنه كان بمثابة النور الأول بعد الله عز وجل هو الأستاذ الدكتور عبدالعزيز المقالح الشخصية التي نقلته من مرحلة الرغبة في التجربة إلى مرحلة الثقة بنجاح التجربة والذي كان قد قرأ دروساً على كتبه قبل أن يلتقي به وبعد أن التقاه في الجامعة لأول مرة قال الدكتور عبدالعزيز المقالح: (أنا على ثقة بأن زميلكم هذا سيجلس في هذا الكرسي وسيحاضر.. وعندها إذن نقول هذا الدكتور محمد ناصر حميد)..

وتختزن ذاكرته فضلاً لأناس كثر لا يستطيع أن يحصيهم كانوا يشجعونه ويعلمونه يخشى أن ينسى أحدهم فيقع فيما لا يريد أن يقع فيه، ولكنه في الأخير كان يسأل نفسه إذا لم يدرس فماذا سيعمل؟! وهذا السؤال كان حافزا ومشجعا ودافعا له ليتجه إلى طريق التعليم والتعلم وفي اعتقاده أنه في النهاية لا يستطيع أي منا مطلقا أن يتجاوز فكرة أنه لا بد أن تكون له قدوة ووجد أنها كانت قوية في رسم الطريق أمامه..

محمد ناصر حميد لم يمضغ القات إلى الآن مثل باقي اليمنيين ولديه ثلاثة أولاد بنتان وولد سامية وياسر وسعاد ويتعامل معهم في المنزل بوصفه أبا ويتعاملون معه بوصفهم أبناء ولا ينسى أولاد أخيه التسعة وهم يعيشون في منزل واحد مع الأسرة الممتدة ووالدتهم ويشعر أنهم بالنسبة له أقمار الدنيا ونجومها..

يقول الأبناء عن والدهم: كل شيء في الحياة موجود لدينا وهذا كله بفضل والدنا الدكتور محمد، لم نشعر أبدا منذ أن عرفناه أنه كفيف وهو القدوة ونفتخر به لما تعداه من الصعوبات ليصل إلى هذه المرحلة من النجاح فهو يعاملنا بدون أي إعاقة كما يعرف المنزل بأكمله من الأماكن والأشخاص وأيضا يقوم بعمل بعض الأشياء قد لا يستطيع من يرى عملها. وله عاطفة قوية جدا تجاه الأطفال فهو يبكي عند سماع طفلا يبكي لشدة حنانه ولا ننسى شدة كرمه وسخائه كما يستطيع أن يندمج سريعا مع من حوله ويندمجون أيضا لحديثه.

وتطلق عيه ابنته سامية اسم (سيبويه اليمن) لما تجد براعته في النحو وفقه اللغة والمعلومات لمجالات كثيرة ولما وجدت في رسالته الماجستير التي هي بعنوان (المصدر المؤول للجملة الفعلية) والتي كانت باحتراف وذكاء لطالب ممتاز جداً بلباقة وتنسيق مرتب لا نستطيع أن نقرأها عند شخص، وتمثل الرسالة إضافة هامة للمكتبة اليمنية والعربية عموماً.

الدكتور عبدالعزيز المقالح يقول: عرفت العزيز الدكتور محمد ناصر حميد طالباً في السنة الرابعة في جامعة صنعاء كلية الآداب كان من أنشط طلاب تلك الدفعة لا يتوقف نشاطه عند حد وكان ذكيا لماحا متابعا لكل ما يقال في المحاضرات يستوعب كما لا يستوعب غيره من زملائه الطلاب، كان يذكرني بما قرأته عن عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين فقد كان له نفس النشاط يناقش ويتحدث مع كل الأساتذة ولا يترك أستاذا زائرا إلا ويتفق معه على مقابلة إذاعية أو يسجلها ويسجل محاضراتهم ويحتفظ بها ويكرر سماعها، لذلك كان من أفضل طلاب تلك المرحلة وهذا ما أهله للسفر إلى مصر وإلى جامعة الاسكندرية التي اختارها لأنها جميلة هادئة يتفرغ فيها الطالب للدراسة والبحث، وهناك وجد من يقدره ويقدر اهتمامه ثم أنجز الماجستير والدكتوراه وعاد إلى الوطن بالحماسة وبالطموح نفسه وظل كما نرى من أنشط أساتذة كلية الآداب متعدد المواهب والأنشطة عالماً لغوياً لا يبارى ومرجعاً من مراجع هذه اللغة التي تتعرض في هذه الفترة لهجمة من أبنائها ومن أعدائها، وعلى مثل الدكتور محمد ناصر حميد تعتمد هذه اللغة في حمايتها والحفاظ على مكانتها كلغة عظيمة ذات تاريخ في العلوم وفي الآداب. وإنني أعجز في الحقيقة أن أتحدث عن هذا الدكتور الشاب الذي تجاوز كل المعوقات واستطاع أن يصبح على ما هو عليه والذي أرجو أن يجد المناخ الذي يساعده على اكتشاف نفسه وتقديم ما ينتظره منه الوطن.

هذه خلاصة مسيرة حياة أرجو أن تكون قد لفتت الانتباه على الرغم من أنها مسيرة إنسان بسيط جداً وطبيعي لم يخرق العادة ولم يأت بما لا تستطعه الأوائل ولكنه حاول، نجح أو لم ينجح هذا أمر عائد على قارئ هذه السطور.